الحيوان للجاحظ

تحقيق وشرح الأستاذ عبد السلام محمد هارون

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أقدم عملا عظيما فى لون من ألوان الأدب المصرى لم يوجد إلا بعد أن وجدت المطبعة ، ووجدت بحوث المستشرقين وفن إخراج الكتب

وهو عمل يتصل بالعلم بما فيه من التحقيق وتحرير النصوص ، ويتصل بالأدب بما فيه من ملكة التذوق والترجيح واستقاء الثقافة الأدبية والاعتماد على المحفوظ المذكور من نصوصها ، ويتصل بالفن بما فيه من تنسيق وتبويب وإخراج جميل يروع ويجذب العين واليد إلى الكتاب

وكاد هذا العمل يكون خاصة موقوفة لأقلام علماء المشرقيات الأجانب لولا نفر قليل من المشارقة أنفسهم ساهموا بأقلامهم فى هذا العمل النافع القيم الذى هو فى الحق ميلاد جديد للكتب القديمة تهتز له عظام مؤلفيها القدامى غبطة بتسهيل الانتفاع بما تركوا من آثار جليلة قد يذهب بما فيها من الفائدة عند شباب هذا الزمان أنها ألفت على غير ما ألفوا من الكتب الحديثة المنوبة التى يعلن فيها كل مبحث عن نفسه فى سهولة واقتراب إلى الأذهان التى لم تتعود الصبر والجلد على التعرف إلى الآثار القديمة لانقطاع الأسباب وبعد الزمن وتغير الأساليب وكثرة الملاهى وحب السرعة ، ومرض الهمة وكلال العزيمة

وإذ أقدم هذا العمل العظيم أشعر فى نفسى بغبطتين : الأولى غبطتى ببعث مكتبة الجاحظ أديب العربية العباسية الأكبر ، ووارث علوم علمائها وأدب أدبائها وخفة ظرفائها ، وسجل دنياها الزاخرة ، ومصور حياتها المتشعبة ، بعث فيه من الجدة والفن والطرافة ما يخيل إلينا أنها انحسرت عنها قريحة معاصرة

والثانية غبطتى بأن هذا البعث كان على يد صديق الثبت الضليع الأستاذ عبد السلام محمد هارون الذى أعرفه كما أعرف

من الجزء الثانى : (فى تحقيق ناموس) ؛ وقد تكررت الكلمة مفردة ومجموعة . وكنت أتوهم أن العرب لم تعرف هذه الكلمة بمعنى (السنة) وإنما جاءت بمعان أخر مذكورة فى دواوين اللغويين . أما الناموس بهذا المعنى (أى بمعنى السنة) فقد أدخلها (النصارى) المعربون منذ صدر الاسلام لوجودها فى التوراة والانجيل بهذا المعنى . وكذلك تراها مبثوثة فى كتب المنطق والفلسفة والطبيعة والطب واللاهوت وماوراء الطبيعة ؛ لكن فصحاء المسلمين لم يحفوها ولم يقروها فى أسفارهم ولا فى معاجمهم ، فهل وجدتها بهذا المعنى فى الدواوين القديمة فى غير ما أشرت إليه من التصانيف ؟

. . . هذه بعض أسئلة — وليس فيها شىء من النقد ، معاذ الله — وقد خطرت ببالى وأنا أتلذذ بتصفح هذا السفر الفذ ، وأتوقع الجواب عنها . فعسى ألا أحرم أنوارك المبددة للظلمات ، وأختم كلمتى هذه بالشكر ثانية لأياديك البيض كما بدأتها به .

(الأب أنستاس مارى الكرملى)

* * *

. . . فالى اللغوى العلامة الأب أنستاس مارى الكرملى ، أن يتفضل على قراء الرسالة بنشر ما قد يكون وصله من جواب الراغى على هذه المسائل

والى اللغويين من قراء الرسالة أن ينشروا على القراء رأيهم فى جواب هذه الأسئلة ، وإلى النقدة من كتاب العربية أن يقرءوا هذه الرسالة لعلهم يجدون فيها مثلا فى أدب النقد

وفى صفحات الرسالة متسع إن أذن الأستاذ الزيات .

محمد سعيد العريان

نفسي إذ كان صدى الأول وصنوى فى عهد الدراسة العزيز

وأخشى أن يحسب حاسب أنه قد طغى وثوقى بهذه الشخصية وحبى لها على تقدير عملها فى «الحيوان» تقديراً بعيداً عن الغلو، كما أخشى أن يظن ظان أن الأمر فى هذا التقديم مرجعه إلى «توريط» الصداقة وتقريظ الأصدقاء بعضهم بعضاً. وحسب ذاك الحاسب وهذا الظان أن يرجعا إلى الجزء الذى طبع من الحيوان ليريا المجهود فيعرفا الشخص الذى بذله كما عرفته أنا منذ خمس عشرة سنة أديباً متصلا بصميم الأدب العربى مقلباً يده وعينه فى مراجعه القريبة والبعيدة ممتلئاً من حُمر نصوصه.

وإذا كانت الأمور تقاس وتقدر بما يبذل فيها من مجهود لا نتيجته النافعة فأظن أن ما فى المطبوعة الحديثة من الحيوان من التحقيقات وتحرير النصوص وفهارس المعارف وأجناس الحيوان وأعلامه وأعلام الناس والقبائل والطوائف والبلدان والأماكن والأمثال والشعر والأرجاز واللغة والكتب وأيام العرب، أظن هذا كله عملا أشق وأنفع من كثير من الكتب التى يرسلها مؤلفوها إرسالا سهلا. وأظن أنه يستتبع تقدير صاحبه تقديراً ترضى به نفسه. وقد صار العلم الآن بما فى الكتب القديمة سهل المورد بأمثال هذه الفهارس التى تنفض ما فى الكتب نفضاً، وتعلن عن كل كلمة فيها إعلانا عريضاً يأخذ بعيون الباحثين إلى مايلقون من الأشباه والنظائر والمختلفات، مما يوفر عليهم الجهد والوقت والاستذكار، حتى لقد شاعت هذه الكلمة «إن العلم الآن معرفة ما فى الفهارس»

وقد ابتدع الأستاذ هارون فهرساً قيماً لما فى الحيوان من المعارف التى وضع لها هو أيضاً عنوانات فصلت أثناء الكتاب، وهو لون طريف فى التعريف بما ورد فى الكتاب حشوا فى غيره، مما قد يمر عليه القارىء عفواً بدون ترقب ولا تعقب؛ وهو عمل عظيم فى كتب شأن مؤلفيها الاستطراد وإلقاء ما فى الذاكرة متى حضر ولو بدون مناسبة قريبة، وإنما هو جود الذاكرة.

والأوائل كانوا على رأى فى الأدب هو أنه الالمام من كل شىء بطرف، ولذلك كانوا يخرجون كتبهم الأدبية إخراجاً يرضى هذا التعريف. فكانت كتبهم الغالبة أشبه شىء بحديث المجالس وأمالها. غير أن هذا اللون من التأليف نبا عنه الذوق العصرى الذى لا يرضى من المعارف إلا ما كان فصائل وأجناساً مضموماً بعضها إلى بعض ممزة بعنوانات تضم الشتيت كما يضم اللقب الأسرة، ولا يرضى أن يذهب فكر القارىء شعاعاً وبددا هنا وهناك وقت القراءة.

وعلى ذلك كل عمل يرشد القارىء الجديد إلى مايبحث عنه فى بطون الأسفار القديمة رأساً بدون اضطراره إلى الخوض فى بحر لا ساحل له، وفى مباحث لا حاجة له إليها، فهو عمل من أجل ما يربط أسباب الجديد بالقديم ويجلو الدرر المدفونة بين طيات الكتب التى فيها كثير من الحصا والتراب.

وقد قدم الأستاذ هارون «مكتبة الجاحظ» التى «سيعمل جهده على إخراج مايمكن منها بعون الله مامد له فى الحياة» تقديماً بديعاً تحدث فيه عن بيان الجاحظ وعصره والتأليف فى عصره ومؤلفات الجاحظ ومنحاه فى التأليف وقيمة كتبه فى نوادى الأدب وذيوعها ووراقيها. وقد أتى فى هذا الحديث بفوائد ممتعة.

وقد قدم كذلك كتاب الحيوان تقديما خاصا عرض فيه لمنشأ التأليف فى الحيوان عند العرب ولمراجع الجاحظ فى تأليف كتابه من القرآن والحديث والشعر العربى وكتاب الحيوان لأرسطو ومحاولات المعتزلة وجدالهم فيما بين أيديهم من ألوان المعارف جليلها ودقيقها؛ ثم المجهود الشخصى للجاحظ وولوعه بمباحث الحيوان ولوعا حمله على أن يجالس اللاحين وصائدى العصافير والحوائين وغيرهم من القائمين على شئون الحيوان. وهو لعمر الحق مبحث فى غاية النفاسة وفى صميم الأدب الأصيل اهتدى إليه الأستاذ هارون ابتداء، لم يسبقه إليه سابق فيما أعلم. ومن المباحث القيمة أيضا فى هذا التقديم تحقيق زمن تأليف الجاحظ للحيوان وتبيين قيمة كتاب الحيوان بما فيه من المعارف الطبيعية والمسائل الفلسفية وسياسة الأقوام والأفراد ونزاع الطوائف، والمسائل الجغرافية وخصائص الأجناس وقضايا التاريخ وأحاديث الطب والأمراض والمفردات الطبية، وأحوال العرب وعلومهم ومزاعمهم، ومسائل كثيرة فى الفقه والدين، مضافا إلى ذلك كله فكاهة الجاحظ الساخر، أو فلتير الشرق — كما لقبه الأستاذ الزيات — واختياره للصفوة المختارة من حر الشعر العربى ونادره... إلى آخر ما تمتاز به مؤلفات أبى عثمان البحر...

«وبعد» فنظرة واحدة إلى صفحة من صفحات الكتاب بصلبها وهامشها تقف القارىء مباشرة على مقدار الجهد العنيف الذى بذله الأستاذ الصبور محقق الكتاب، فى ضبط الألفاظ